المشرق

يرفع فرائض التهاني البنوية الى اعتاب الحضرة البابوية

قداسة البابا بيوس العاشر

إمام الاحبار وخليفة خادم الرسل ونائب المسيح على الارض

بفرصة يوبيليه الكهنوتي والاسقفي

اليوبيل الاسقفي
١٨٨٤–١٩٠٨

اليوبيل الكهنوتي
١٨٥٨–١٩٠٨

يوبيلا الحبر الاعظم الكهنوتي والاسقفي

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

في ١٨ ايلول سنة ١٨٥٨ نال قداسة الحبر الاعظم رتبة الكهنوت الشريفة فيكون مرَّ عليهِ كاهنًا خمسون سنةً وادرك ما يُعرَف اليوم بالعرس الذهبيّ. ثم انَّ قداستهُ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٨٤ رُقّي الى درجةٍ أسمى شأنًا اعني رتبة الاسقفية التي تُعدّ في الكنيسة كمال الكهنوت وتخوّل المتقلّد بها الحقّ لرعاية بيعة الله التي اقتناها المسيح بدمهِ (اعمال ٢٠: ٢٨) فبلغ منها اليوم خمسًا وعشرين سنة وذلك العرس الفضي. فلم يسَع الكاثوليك أن يضربوا الصفح عن تذكارين جليلين كهذين دون ان يتسارعوا الى اقدام كبير احبارهم ويرنوا بالنظر الى شمس فلكهم ومنارهم ليقدّموا لساميّ عرشهِ فرائض الاكرام ويترجموا لهُ عن شواعر اخلاصهم البنويّ ويستمدّوا من ضيائهِ نورًا جديدًا ليسيروا في ظلمات هذا العالم فيسلموا من مهاوي الضلال ولا يتيهوا في مغاوي الفساد او يعثروا في سبياهم بمعاثر الريب والشكوك. وما لنا في هذا الموسم العظيم الّا ان نضيف صوتنا الضعيف الى اصوات الثلثمائة مليونًا من الكاثوليك المرتفعة من اربع خوافق العالم الى ابي المراحم ومصدر كل الهبات والنعم طالبين منهُ من صميم الفؤاد بان يؤيد النائب عنهُ في ارضنا بيمينهِ القادرة ويصونهُ بعينهِ الساهرة ويسبغ عليهِ ظلّ انعامهِ في هذا العيد ويمتعنا بعد مدّة بافراح يوبيلهِ البابويّ كمالهِ السعيد

١ الكاهن

انَّ للدول وللرجال العظام شعارًا يُعرف بهم ويُعرفون به قد اختاروهُ ليكون منبّهًا لافكارهم وباعثًا لهمهم فكأنهُ الغاية التي يرمون اليها والنور الذي يستضيئون بهِ فاذا حقّقوهُ بالفعل كان اجمل ثناء على حُسن سلوكهم وصدق نيّاتهم. ولبيوس العاشر امام الاحبار شعارٌ فاخر استعارهُ من كلام بولس الرسول الى اهل افسس (١: ٣—١٠) حيث وصف للمؤمنين غاية سرّ الفداء التي هي «تجديد كل شيء في

المسيح » فا دعا الله حبرنا الجليل الى رئاسة الكنيسة جمعاء الّا وجاهر بهذا الشعار وجعلهُ فحوى براءته الاولى الى لفيف رعاياهُ

ولا غرو فان نظرنا الى حياة صاحب اليوبيل واستقرينا اعمالهُ رأيناهُ جاريًا في نور هذا المبدأ الشريف ليس فقط منذ جلوسهِ المأنوس على الاريكة البابويَّة ولكن منذ تجلّى لهُ الله يوم قبولهِ نعمة الكهنوت فادرك من حينهِ سموّ تلك الدعوة وعرف حقّ المعرفة انَّ الكاهن قبل كلّ رجلُ الله ورجل القدوس فلم يَعُد مستقلًا بنفسهِ بل اصبح آلةً لمجدهِ تعالى فيحيي كلّ موات بحياة المسيح ويصلح كلّ فساد بقوَّة المسيح ليكون المسيح كلًّا في الكل (كو ٣: ١١) لان كل شيء هو منهُ وبهِ واليهِ (رو ١١: ٣٦) لهُ المجد على مدى الدهور

قضى الكاهن يوسف سارتو ربع قرنٍ في تتمَّة واجبات الكهنوت كان كل يومٍ من تلك الاحقاب تحقيقًا لشعارهِ السابق ذكرهُ. فخدم اوَّلًا النفوس في قرية حقيرة تُدعى تُنبولو كان معظم اهلها من اصحاب الصنائع والفلاحة فا كان يأبى ان يخرج بهم بل كان يؤانسهم ويلاطفهم ويتحفَّى لهم ويستطلع كلّ اخبارهم ليقف على حاجاتهم ويسدَّها ما امكنهُ فاكتسب بانسهِ ثقتهم ولم يَنْتهُ شيء من اسرار حياتهم حتى عرف خيرهم وشرَّهم وذاق حلوهم ومرَّهم وصار اخبر الناس باحوال العَمَّة وأحنكهم بالأبحاث الاجتماعية واعرفهم باوهام الاشتراكيين وترَّهات الفوضويين التي كتب فيها بعدئذٍ كتابة رجل ثاقب الفكر سامي المدارك واسع الباع

وممَّا عُني بهِ في السنوات الاولى من كهنوتهِ تعليم الشعب وتهذيبهُ بالآداب المسيحيَّة لعلمهِ بقول النبيّ (ملاخي ٢: ٧): «بانَّ شفتي الكاهن تحفظان العلم ومن فمهِ يطلبون الشريعة اذ هو ملاك ربّ الجنود». فلم يسعهُ ان يكون ملحًا تنفهُ لا يُصلح ارض القلوب او مصباحًا يُحجَب ضوؤهُ تحت المكيال. فكان كل يوم احد او عيد يرقى منبر الخطابة ليرشد المؤمنين ويدعوهم الى كل البرَّات وصالح الاعمال. وكان في اوَّل امرهِ يحبُّ زخرف الكلام والتأنُّق في العبارات لكنَّهُ عدل عن ذلك بمشورة احد الكهنة الافاضل فصار يفضّل سذاجة الانجيل على الحكمة البشريَّة وعلى كل براعة في الالفاظ فتحقَّق بالاختبار قول الرسول (عبر ٤: ١٢): «انَّ كلام الله هو حيّ عامل امضى من كل سيف ذي حدَّين نافذ حتى مفرق النفس والروح» فيستغني عن البلاغة البشريَّة

وكانَّ الله اراد مذ ذاك الحين ان يوطن نفس كاهنه على علاج كل الاسقام فانتشب في تلك الاثناء الحرب بين دولتي ايطالية والنمسة ودُعي اخوهُ الى الجندية فلم تلبث الجرحى أن تُرسل الى كل المستشفيات ليقوم بمداواتهم اصحاب الفضل. وما كان يوسف سرتو ليتأخر عن هذا عمل الرحمة بل كان يتردد على المستشفيات ليؤدي لاولئك البائسين كل الخدم الروحية والجسدية التي في طاقته دون تمييز بين جرحى الايطاليين والنمسويين فيتفانى على حدٍّ سوى في سبيل الجميع ليكسبهم جميعاً للمسيح. وقد واظب على تلك الخطة معتزلًا في تصرُّفه للامور السياسية داعياً الى الله بان يمد رواق السلام على وطنه الى ان انتهت الحرب بدخول بلاد البندقية في حوزة ايطالية سنة ١٨٥٩

وبلغ راعيَ الابرشية اسقف تراثية ما خصَّ به يوسف سرتو من المزايا الطيبة والفضائل الكهنوتية السامية فدعاهُ سنة ١٨٦٧ الى تدبير رعيَّة اعظم من تمبولو وهي بلدة سَلزانو من اعمال البندقية لعلمه بتجرُّده عن كل غاية بشرية في خدمة النفوس في مدينة كانت سابقاً تحت حكم النمسويين. فقُضي على الكاهن البارّ ان ينفصل عن ابنائه في تمبولو مع شقّ النفس وباشر بكل غيرة ونشاط واجباته في مأموريته الجديدة مستشعرًا بشعاره المعتاد أن يجدّد كل شيء في المسيح. وكانت اوّل كلمة تلفّظ بها امام اهل سلزانو المقبلين للسلام عليه: « انني ساكون رجل الكلّ وخاصة الجميع بلا استثناء »

وكذا كان في الحقيقة مدَّة السبع السنين التي قضاها في سلزانو. فانَّ اهل البلدة كانوا لسانًا واحدًا في الثناء على تراهته وزهده وخدمته للكلّ دون مراعاة الاشخاص او محاباة الوجوه. وكان قلبهُ الابوي يحدو به الى تفضيل الفقراء والمساكين والمرضى والمهملين وكان لا يردّ مستعطيًا حتى انَّهُ غير مرَّة احتارت اختاهُ في البيت ماذا تُعدّان لقوته اليوميّ اذ كان يتصدَّق بكل ما تقع عليه يدهُ من دراهم واثاث وطعام. ففي احد الأيام اهداهُ رجلٌ من ابناء رعيَّته لفصل الشتاء حطبًا ليصطلي به فما مرَّ عليه ثلاثة أيام حتى وزَّعهُ كلَّهُ على ذوي البأساء وبقي طول الشتاء يُكابد شدَّة البرد. وفي يوم آخر ضمن الخاتم الذي كان يتختَّم به خوارنة سلزانو ايذانًا بُرتبتهم لوفاء دين استدانهُ لمساعدة الفقراء.

وكان تعطفهُ على المرضى اعظم وارقّ فيضعف مع الضعفاء قدوةً بالرسول (٢ قور ١١: ٢٩) . وكان لا يتريّث في عيادتهم اذ يبلغهُ ابتلاؤهم بالمرض فيزورهم ويعزّيهم ولا ينفصل عنهم حتى يزوّدهم بالاسرار ويمدّ اليهم يد المساعدة . وكثيرًا ما كان يخرج اليهم في آناء الليل في ايّام البرد القارس . وكان في البلدة مستشفى لذوي العاهات كان يخصّص لخدمة مرضاهُ قسمًا كبيرًا من وقته وماله . ولمّا حاول بعض ذوي المطامع أن يضبطوا اوقافهُ دافع بنفسه عن حقوق المستشفى لم تأخذهُ في دفاعه لومة لائم او مهابة ظالم

وكان سرتو مع رعاية النفوس لا ينسى خدمة الربّ وما يتوط بكرامة بيته . فانهُ اسرع الى اصلاح كنيسته وترميمها فنرشها بالرخام وزيّنها بالآثاث الجميل واقتنى لها الآنية المقدّسة لخدمة الهيكل ونقش على جدرانها التصاوير البديعة المثلة لاعمال القديس الرسول برتلماوس الذي كانت الكنيسة على اسمه . واعدَّ ارغنًا رخيم النغمات يوقع على اصوات ارباب الغناء الكنسيّ في الحفلات الدينيّة . وكان لا يضنّ بالنفس والنفيس لزيادة رونق الاعياد وتنشيط روح الدين في رعيّته فأنشأ الجمعيّات التقويّة كالاخويّات والشركات الصالحة لاكرام القربان الاقدس وتعميم شركة الوردية وعبادة درب الصليب . امّا المواعظ والرياضات السنويّة فكان يباشرها في اوقاتها فيتقاطر الى استماع تعاليمه الخلاصيّة الغرّاء فضلًا عن اهل رعيّته لبلاغة كلامه

وكان اهتمامهُ بالاحداث عجيبًا فيجمعهم ويلقنهم مبادئ الدين وقد ابتنى لهم قاعة كبيرة تسعهم على كثرتهم . وكذلك المهاجرون الى البلاد القاصية كان يهتمّ بتسفيرهم ويوصي بهم ارباب الدين في الاقطار الاجنبيّة ليكونوا في مأمن من الاخطار والبلايا عند وصولهم ولا يلحق بايمانهم ضرر

وفي سنة ١٨٧٥ تنقّد اسقف تراقية السيد تسيناڤي مدينة سلزانو ورأى عيانًا ما اصطنعهُ راعيها الفاضل من الاعمال الاثيرة . فظنّ ان رجلًا كيوسف سرتو لا يصلح الّا لكنيسته الكاتدرائيّة ليكون لهُ كمساعد ومستشار في تدبير ابرشيّته فجعلهُ قانونيًا على بيعته وناظرًا على اعمال كنيسته

ما عتّم السيد تسيناڤي أن ادرك قيمة الكنز الذي حصل عليه فلم يدع امرًا خطيرًا الّا وكلّ بهِ القانونيّ سرتو . واوّل ما عهد اليهِ رئاسة مدرسته الكهنوتيّة

ليكون للمترشحين لدرجة الكهنوت قدوةً حيَّة ومثالًا لجميع الفضائل. فكلَّفَ الرئيس الجديد ذهنهُ وسهر عينهُ في القيام بهذه المهمَّة ليؤازر كنيسة الله بكهنة صالحين يجمعون بين العلم والتقى وهما جناحا الكاهن بهما يحلّق الى اعالي السماء. ويرقي معهُ النفوس الموكول اليهِ تدبيرها

وكان مع هذا يبسط عنايتهُ الى كل المشروعات الخيريَّة من تربية الاحداث وتهذيب الشبيبة وتقديس العيال المسيحية. وكان في سلزانو انشأ جمعيَّةً للشبَّان يلقي عليهم خطباً لاهوتية وفلسفيَّة واجتماعيَّة. يباحثونهُ فيها ويعرضون عليهِ المشاكل ليحلَّها فأتت بثمار جنَّة. فرأى في تراقيسة ان يستأنف هذه الخطب ويدعو اليها جمهور الشبَّان فأتوها حتى ضاقت بهم الغُرَف الفسيحة

وكان لا يأبى ان يخدم الاجانب ايضاً من غير دينهِ فمن ذلك انهُ لبَّى دعوة اسرة موسويَّة من تراقيسة وعلَّم اولادها الآداب الايطالية رغماً عن اشغالهِ العديدة. فعرفت لهُ تلك العائلة حسن فضلهِ واثنت على همَّتهِ القعساء.

امَّا اسقفهُ فكان يزداد كل يوم اعتباراً لشخصه وفي سنة ١٨٧٨ خرج لزيارة الابرشيَّة فرافقهُ قانونيُّهُ في هذه المهنة وكان كلاهما لا يدَّخران وسعاً في العمل حتى ان الاسقف أُصيب بثالج واضطرَّ الخوري سرتو ان ينوب عنهُ في تدبير الامور فسُرَّ الجميع بحسن سياستهِ ولين عريكتهِ ولمَّا استأثر الله بالاسقف بعد مدَّة عُقدت الخناصر على توليتهِ النيابة الاسقفيَّة ريثما يتعيَّن لسالف الميت خلف

وبعد اشهر قُلِّد السيد كلِّنغاري شؤون اسقفيَّة تراقيسة سنة ١٨٨٠ فما كان منهُ الَّا ان اثنى على ادارة نائبهِ لأحوال الابرشيَّة واثبتهُ في مقامهِ وكان يرجع الى رأيهِ في كل مذاهبهِ. ولو كان الله اعلمهُ بالغيب لعلم انَّ نائبهُ هذا سوف يكسوهُ يوماً بالارجوان ويشرِّفهُ بمنصب الكرادلة. ولمَّا زار الاسقف في العام القابل الاعتاب الرسوليَّة رافقهُ في زيارتهِ نائبهُ العزيز وقدَّمهُ للحبر الاعظم لاون الثالث عشر فتلطَّف بهِ امَّا الكاهن الوضيع فلم يخطر ببالهِ انهُ هو المندوب ليخلف لاون في رتبتهِ الرفيعة ويجلس على هذا العرش السامي الذي كان منطرحاً عند اقدامهِ فسبحان الذي يُنهض المسكين من التراب ليرفعهُ فوق عظماء الارض

لم تطل مدّة اسقفيّة السيد كليفاري في مدينة تراقيسة فانتدبهُ الحبر الاعظم سنة ١٨٨٢ الى كرسي بادوا واقام بدلًا منهُ احد اساتذة مدرسة تراقيسة السيد ابولونيو وكان هذا يعرف حقّ المعرفة النائب الاسقفي سرتو فسلّم اليهِ مقاليد التدبير في انحاء ابرشيّتهِ لعلمهِ بانهُ اذا عُني بامر دبّرهُ من احسن وجوههِ . فبقي النائب سيّارًا على خطّتهِ ممتّعًا برضى الرؤساء والمرؤوسين اذ دخل عليهِ السيد ابولونيو في صباح احد الآيام على فجأة وسلّمهُ براءة الحبر الاعظم التي تفوّض الى عهدتهِ اسقفيّة منتوا. فبقي النائب واجمًا لا يحير جوابًا. وكأنّ الرتبة الاسقفية ظهرت لهُ في جلالها وشرفها فأنف ان يتكأّد اعباءها وتخوّف مسئوليّتها امام الديّان الرهيب فتراءى على كرسي امامهُ واندفع يبكي ويتوسّل الى اسقفهِ بان يُبعد عنهُ هذه الكأس ويطلب من الحبر الروماني بان يختار من هو اولى بهذا المقام. لكنّ البراءة البابويّة كانت قد أُعلنت وكان حكم البابا قاطعًا فلم يمكن الاسقف ابولونيو ان يسكّن جأشهُ الّا انهُ عرض عليه مثال الرب الذي احبّ البشر وجعل نفسهُ مطيعًا حتى الموت وموت الصليب. فنصت البنيس لهذا الكلام واتّخذهُ كدليل على ارادتهِ تعالى

٢ الاسقف

الاسقف في الكنيسة بمنزلة الاب في البيت والرئيس في الجماعة والوالي في المدينة يرعى بيعة الله ويرشد ابناءها من كهنة واكليريكيين وعالمين فيقودهم في طريق الخلاص ويزيّن نفوسهم بالفضائل ويصونهم عن الاضاليل والآراء الفاسدة ويسهر عليهم سهر من سيحاسبهُ الله عن كل واحد منهم. وذلك ما كان يُرهب الخوري سرتو عند انتخابهِ لكرسي منتوا ويرعد فرائصهُ لاسيما انّ اهل منتوا كانوا وقعوا من بضع سنين في أشراك الفوضويين الذين اسعروا في قلوبهم المطامع واثاروا الفتن وحجبوا عن القلوب انوار الدين. الّا انّ البابا لاون لم يوجّه اختيارهُ الى النائب الاسقفي سرتو الّا لعلمهِ بمقدرتهِ . ولمّا رآه بعد سيامتهِ عند أقدامهِ باركهُ قائلًا: « ان كان اهل منتوا لا يحبّون راعيهم الجديد فذلك دليل على انهم لا يستطيعون ان يحبوا احدًا لانّ السيد سرتو احبّ الاساقفة واكثرهم لطفًا ودماثة » ثم صرفهُ الى ابرشيّتهِ ليصطاد نفوسها في الشبكة الرسولية

خرج السيد سرتو من رومية وهو يردّد قول بطرس للمسيح: « بكلمتك ألقي الشباك ». وكان منذ تقرّر انتخابهُ لاسقفيّة منتوا جعل تحت نظره شعارهُ المعروف بان يجدّد كل شيء في المسيح. وقد اودع ذلك رسالتهُ الاولى التي وجّهها الى المجلس الملّي في منتوا بقوله: « ستلقون في الموفود اليكم كاهناً لواؤهُ لواء السلام وشريعتهُ شريعة الحبّ. انَّ راعيكم الجديد فقير بالارضيّات لكنّهُ غنيٌّ بالقلب. لا يأتيكم سوى لغاية واحدة ليخلّص نفوسكم ويجعل كل رعاياهُ اسرةً واحدة كأنّها احباب واخوان »

والحق يقال ان الاسقف ما كاد يدخل مدينتهُ حتى جذب اليه كل خراف رعيّته فان غنى قلبه كان مفتاحه الى قلوبهم فنال به ما لا يُنال بغنى الذهب والمال وربح الكل للمسيح واتّخذ لهُ في الاسقفيّة كقدوة حياته مثال القديس كرلس بوروماوس. ولمّا رأى الحقل الموكول لحراثته واسعاً كثر فيه الشوك والزوان باشر باصلاح ما وجده أمسّ واحوج اعني سيرة الكهنة ورجال الدين لعلمه بانَّ الاكليريكيين كرآة ينظر الشعب فيهم الخير والشرّ فيقتدي بهم فاختار لتدبير الرعايا رجالاً رآهم اهلاً لهذه المهنة الشريفة وجعل لهذه المناصب الاكليريكيّة سباقات يمنحها المترشّحين على حسب استحقاقهم وعلومهم

وكذلك رقّى الدروس في المدارس الاكليريكيّة واضاف اليها العلوم العصريّة التي لا ندحة للكهنة من الالمام بها. وكان يتردّد حيناً بعد آخر على المدارس فيراقب تعليم المعلمين ويتحقّق نجاح التلامذة وكثيراً ما كان يفحصهم جهاراً باللغات والعلوم الدينيّة والدنيويّة فيندهش الجميع من سعة معارفه. وفي بعض السنين توفي على بغتة معلم اللاهوت الادبيّ ولم يجد استاذاً مستعدّاً لمواصلة تعليمه فتولّى الامر بنفسه مع وفرة اشغاله واعرب عن طول باعه في هذا العلم ذي المشاكل والعقبات

ثم اخذ يزور الابرشيّة في اوقات متقاربة ليبعث هم الرعاة والمؤمنين معاً ولم يأنف ان يلقي العظات حتى في القرى الحقيرة بل كان اذا زار كنيسة يجلس في كرسي التوبة ليحلّ الذين يقصدونه للاقرار بخطاياهم فزاد بمثله هذا اقبال المؤمنين على الاسرار ونشاط الكهنة في اقامة واجباتهم

ثم أعقب السيد سرتو اصلاح اكليروسه باصلاح لفيف المؤمنين طائفةً طائفة وطبقةً طبقة شأن البستانيّ الحاذق الذي يسيل مياه الحوض الى كل مزدرعاته. وكان لهذه

الغاية يوفر الوسائل الدينيَّة ويؤسس الجمعيَّات التقويَّة وينشئ الشركات الخيريَّة. وكان يتقرَّب الى اعداء الدين نفسهم حتى يكسبهم للسيرة الصالحة. وقد مات غير واحد منهم بعد ان اناب الى الله عن يده

ومن الاعمال العظيمة التي قام بها السيد سرتو (سنة ١٨٨٩) الاحتفال بالمئة الثامنة لموت القديس انسلموس الذي كان بشَّر في ابرشية منتوا (سنة ١٨٩١) ثم حفلات المئة الثالثة لوفاة القديس لويس دي غنزاغا اليسوعي المولود قريباً من منتوا وكان اجداده تولَّوا امرة هذه الولاية فانَّ الاعياد البهيجة التي جرت في هذين الموسمين بثت في النفوس روح التقوى وازالت عن قلوب كثيرة غشاوة آثامها

وكانت الاقطار الاوربية قد سبقت ايطالية في عقد المؤتمرات الاجتماعية للنظر في امور العملة وصيانة حقوقهم وعلاج ادوائهم فانبرى السيد سرتو لهذا العمل في وطنه وبهمَّته اجتمع سنة ١٨٩٠ اعضاء المؤتمر من كل انحاء ايطالية في مدينة بلاسنسة فخاضوا في كل المسائل الاجتماعيَّة التي تشغل اليوم افكار الدول واتخذوا ما رأوه انسب من الاحتياطات الاقتصاديَّة والتحويرات الماشية لتخفيف وطأة الفقر عن العملة وتحسين احوالهم ومنع الازمات والاعتصابات التي تريدهم شقاء ومضرَّات

كان الاسقف سرتو قضى في منتوا تسع سنوات في اعمال شريفة كان يقدِّرها الناس قدرها مع كونه يسعى جهده في اخفائها تواضعاً. وكان الحبر الاعظم لاون الثالث عشر قد عرف فضائله السامي وهو ينتظر فرصة ليعلن باعتباره لشخصه وبثقته في رويَّته فجاءت تلك الفرصة لمَّا توفي بطريرك البندقيَّة السيد دي اغوستينيس فلم يجد الحبر الاعظم من يدعوه الى هذه الرتبة الشريفة احقَّ شأناً من اسقف منتوا لكنَّه لم يشأ مع هذا ان يحرم اهل ابرشيَّته من تدبيره لعلمه بانَّ الجميع كباراً وصغاراً يتمخضون كأبٍ لفقده فترك له تدبير اسقفيَّة منتوا الى سنتين ريثما يقوم بادارتها من هو كفوٌ لمواصلة الاعمال الجليلة التي انشأها. وقد اضاف الاب الاقدس الى هذه النعمة الاولى نعمة ثانية فنظم البطريركية الجديد في سلك امراء الكنيسة وكاردلة البلاط الروماني في اواسط حزيران من السنة ١٨٩٣

*

ليس هنا المكان لنطري مفاخر البندقية ونعدّد اوصافها كفاها فخرًا انّها مدّة اجيالٍ متوالية كانت ربّة البحر تزاحم بتجارتها البحريّة كل تجارات الدول الاوربية. ولما امجادٌ الدينية ارفع شأنًا واجلّ قدرًا من محاسنها المدنيــة فانّها تشرّفت ببشارة الانجيلي مرقس تلميذ بطرس ونالت من كرسي هامة الرسـل الرتبة البطريركية منذ قرون عديدة. وقد شرّف هذا المقام كثيرون من افاضـل الرجال اشهرهم القديس لورنسيوس جستنياني في القرن الخامس عشر فانّ اسمـهُ لا يزال الى عهدنا حيًّا في البندقية يباركهُ كل من يذكر فضائلهُ العجيبة

اقتدى يوسف سرتو في اسقفيّتـهِ بكرلوس بوروماوس فأنتمى في البندقيّة بامثال سلفه لورنسيوس ليحيي فضلهُ بين اهل بطريركيتهِ. ولم تبقَ هـذه الرغبة مقرونةً في قلبهِ بل لاحت في عيون الجمهور منذ الأيام الاولى بعد تنصيبهِ وكان يتشبّه بشفيعهِ خصوصًا في اعمال الرحمـة نحو البائسين والمرضى والفقراء. وقد وجدوهُ يومًا كالقديس لورنسيوس حاملًا في ظلمة الليل فراشًا لبعض المساكين بلغـهُ انهُ في اسوإ حالة في احد اكواخ المدينة. فما لبث ان شـاع فضل البطريرك واشتهر تفانيهِ نحو المعوزين حتى عرف الجميع انّ الحبر الجديد احد رجال الله فاخذوا يساعـدونهُ في مشاريعهِ الخيريّة ويجارونهُ في مبرّاتهِ. وكان اعداء الدين انفسهم لم يتجاسروا ان يرشقوهُ بطاعنهم خوفًا من الجمهور لئلّا ينسبوهم الى الكذب

وكانت الحكومة الحليّة لا تزال الى عهـدهِ معاديةً للدين ولأربابه وما كان الكردينال سرتو ليضحي ذرّةً من حقوق الكنيسة لإرضاء خاطرها لكنّهُ كان يظهر في كل حين مراعاتهُ لقوانين البلاد ويتحايد كل ما يخرجهُ عن دائرته الدينيـة ويحرّض الجميع على العيشـة الولانية والاتحاد في المشروعات الآئلة الى ترقي الوطن وتحسين احوالهِ ماديًّا وادبيًّا حتى اثنت الحكومة على همّتهِ واخذت تعضدهُ في مساعيه الخيريّة ودعتهُ الى بعض الاحتفالات ليرأسها كمثل الكنيسة فتولّى بركة سفينة جديدة جُرّت الى البحر بعد ان كرّسها الكردينال بصلوات الكنيسة في حفلة عظيمة

وهو الذي جدّد عادةً كانت أُلغيت منذ سنين مديدة وهي بركة القربان تُعطى

سنويًا لمياه البحر بحضور كل اهل المدينة برونق بهي بعد ان يُطاف بالقربان الاقدس بالانوار والشموع وطاقات الزهور والترنم بالتسابيح التقويّة حتى يبلغ الموكب الى محل يشرف على ساحل البحر فيباركهُ البطريرك ويبارك كل القوارب المزدانة بالرايات التي تزدحم فوقهُ

وما اكتفى بهذا بل اراد في السنة ١٨٩٧ ان يجعل البندقية كعرش لربّ القربان تتقاطر الى اكنافه الشعوب المسيحية من كل اقطار العالم فانَّ المظاهرات الجليلة التي حدثت آخرًا في مدينة لندن سبق الكردينال سرتو واجراها وقتذٍ في مدينته البطريركية فعقد اللجنات واستدعى كل اكليروسهِ القانونيّ والعاليّ وقسَّم بينهم الاشغال لإعداد مؤتمر قربانيّ يبقى ذكرهُ على صفحات التاريخ على مدى الازمان. فبعد التأهبات اللائقة وجد الكردينال البندقية مستعدّة لهذه الاعياد الحافلة فافتتح المؤتمر في ٨ آب في وسط جماهير بحمهرة اقبلت من اقاصي البلاد لحضور تلك الحفلات الفخيمة الآخذة بمجامع القلوب. وقد حضر هذا المؤتمر اربعة كرادلة و ٢٨ اسقفًا وعدد لا يحصى من كهنة ومؤمنين من بلاد وطوائف مختلفة وتواصلت الاعياد والطوافات والجلسات الادبية اربعة ايام متوالية اصبحت فيها البندقية صدًى لحامد إله القربان وعجائبه. وكان الكردينال سرتو قد انشأ في ردهات واسعة وقاعات فسيحة معرضًا جامعًا لكلّ اصناف الآثار الدينية المختصَّة بالقربان الاقدس من حلي ومصاغات وجواهر وآنية ثمينة وتصاوير وحلل كهنوتية فكنت ترى الالوف من الزوار يتناوبون الى منظر هذه الكنوز ويقضون العجب من محاسنها

وكان الكردينال مدَّة السنين العشر التي جلس فيها على كرسي البندقية قد اضحى كنفس كل المشروعات الجليلة وكل الاعمال الخطيرة فلا تكاد تجد اليوم في تلك الحاضرة مشروعًا الّا ولهُ فيهِ يدٌ فانَّهُ اهتمَّ كما في تراثيسة وفي منتوا في اصلاح مدرستهِ الاكليريكية وترقية تلامذتها في معارج النجاح بل صرف نظرهُ الى كل مدارس المدينة ليراقب فيها التعليم الدينيّ وتهذيب الاحداث على سُنن الآداب

ولمَّا رأى الاخطار الناجمة عن الجرائد الكفريَّة المناقضة للآداب لم يعرف الراحة حتى انشأ جرائد كاثوليكية تقوم في وجهها فتنلح الحديد بالحديد وتُبطل باجوبتها اضاليل الملحدين فجعل بذلك الجرائد انصارًا للدين والآداب. وبهذه الطريقة

نشط حزب المحافظين وعرف الكاثوليك قوتهم وضعف اعدائهم فلم يزالوا يزيدون عددًا وفضلًا في مدافعتهم عن عقائدهم حتى تمكنوا في السنة ١٨٩٥ ان يدخلوا في مجلس البلدية عددًا وافرًا من نصرائهم فرجحت بذلك الاعمال النافعة للبلاد وتعزز روح الدين وزهق الباطل

فكل هذه المآثر واعمال أخرى عديدة لا يسمح لنا ضيق صفحات المشرق بتعدادها جعلت حياة الكردينال سرتو في اعين المعاصرين كشبه صرح شاهق يستدعي له تاجًا يزينهُ فيصبح تامّ المحاسن مستوفي البهاء والرونق وما كان يعرف احد غير الله ما عسى ان يكون ذلك التاج لمثل هذا البناء. واسرار الله لا يدركها بشر

*

في ٢٣ نيسان من السنة ١٩٠٣ هبط في البندقية برج قديم يُعَدّ من آيات البناء علوهُ ٢٨ مترًا كان يزين كنيستها الكاتدرائية المشيَّدة على اسم القديس مرقس الانجيليّ. فكان لهذا الحادث دويٌّ عظيم ورنّة حزن في قلوب كلّ البندقيين الّا انّ تحشمهم الديني لم يسمح لهم بان يتركوا على الحضيض آثار بنائهم الشامخ وما مرّ عليهم ثلاثة اشهر حتى جمعوا النفقات لاستئناف ذلك البرج الفريد. وكان الكردينال سرتو يتقدّم الجميع في هذا العمل كما في سائر الاعمال الشريفة فدعتهُ الحكومة رسميًا لوضع الحجر الاوّل لهذا الأثر الجديد ففعل في حفلة افاضت الجرائد في وصف جلالها ومحاسنها فكان هذا العمل خاتمة مآثره في البندقية

وفي تلك السنة عينها هبط في رومية بعد الصرح البندقي ببضعة اسابيع برج آخر اشرف واشمخ من السابق برجٌ حيّ اقامهُ الله لاثارة الشعوب لاون الثالث عشر اكبر رجال عصرهِ. فما كانت الكنيسة لترضى بتيتيمها فتألّبت زعماؤها واستدعت لادارة سفينة بطرس ذاك الربّان الذي وطّن نفسهُ على اهوال البحر في البندقيّة عند اقدام مرقس تلميذ بطرس ليكون هو البرج الحيّ الذي ما كان البرج البندقي سوى رمزهِ وصورتهِ

وهاك اليوم قد مرّ على هذين البرجين ستّ سنوات. وقد كاد البرج الاوّل يبلغ ذروتهُ فيتشّح به البندقيّون الى ما شاء الله والى ما تصبر عليه آفات الدهر. اما الثاني

فأملنا ان يعلو سنين عديدة بعد فيبلغ سني بطرس كسلفيه السابقين. وعلى كل حال انَّ ما رأيناهُ من محاسن هذا البرج الفخيم حتى هذه الساعة يكفي ليجتذب اليهِ كل الامم ويدلَّ الشعوب على ذلك الجبل الذي فيهِ خلاصهم. قال النبيّ (ميخا ٤: ١—٣): «ويكون في آخر الأيام انَّ جبل بيت الرب يوجد في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليهِ الشعوب ويتطلق امم كثيرون ويقولون هلمُّوا نصعد الى جبل الرب وبيت إله يعقوب وهو يعلمنا طرقهُ فنسلك في سبلهِ... فيحكم بين الشعوب الكثيرين ويقضي للامم الاقوياء.»

على هذا الجبل العالي قد وُضع صرح بيوس العاشر وقد حقَّق كاسلافهِ في شخصهِ كل ما تنبَّأ عليهِ ميخا في هذه الآية العجيبة. قُل ناشدتك الله اي شعب لم يتطلق اليهِ في سائر جهات المعمور ليس فقط من الامم الكاثوليكية بل من كل القبائل والنحل فقد دخل الواتيكان لزيارة بيوس العاشر ملوكٌ بروتستانت كملك انكلترة وامبراطور المانية وشقيقيها وملوكٌ روم كملك اليونان وانتهُ وفود الدولة العليـة وزوج والصين واليابان وكورية والحبشة. اليهِ احتكم الخصوم حتى اصحاب الممالك والدول. وهو الذي قضى للامم الاقوياء. وبرآتهُ الرسولية مفعمة بالتعاليم الصادقة التي بها يعلّم الناس ان يسلكوا في سبل الرب فانهُ منذ تبوّئهِ للسدَّة الرسولية قد حرَّر خمس عشرة رسالة عموميَّة لكل البطاركة والاساقفة والمؤمنين في العالم كلهِ ليتمِّم وصيَّة الربّ الموجَّهة اليهِ في شخص النبيّ (ارميا ١: ١٠) حيث قال: «اني قد اقمتك في الامم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس» فكم من جراثيم الضلال استأصلها من حقل الكنيسة وكم من اركان البطل والفساد نقضها وابادها. وكم غرسَ في حديقة البيعة من اشجار مثمرة وكم شيَّد من الابنية العامرة

فانهُ بصفة كونهِ اسقف رومية الخاصّ باشر بتدبير كل امورها الروحيـة كي لا يفوت حتى الصغير من ابنائهِ شيء من الصلاح فواجه كهنة الرعايا ويلّقنهم وصاياهُ ولم يزل يهتمّ بشؤونهم بعناية عجيبة ليكون المؤمنون في حاضرة الكثلكة قدوة لغيرهم في بقيَّة المعمور

ولكون البابا بيوس رئيس اساقفة سواد رومية وملحقاتها وجَّه عنايتهُ الى هذا

القسم من حظيرته واهتمّ به اهتمامهُ برومية نفسها ووكل الى الكردينال نائبه بان يزورها باسمه ويتلافى امورها ويعرض عليه كل لوازمها الروحية والزمنيّة

ومن حيث هو جاثليق ايطالية لم يدع شيئاً مما رآهُ لائقاً لانماء روح الدين في جاثليقيّته ولهُ الى اساقفة ايطالية المناشير المفعمة براً وغيرة لتهذيب الاكليروس ولتلقين المؤمنين بالمبادئ الدينية ولمناصبة الشيع السريّة ولتوحيد عمل الكاثوليك مع اساقفتهم. وكان بيوس العاشر مع فقره اوّل من بادر الى مساعدة المصابين بالزلازل في جبال كلابرية وصرف المبالغ الطائلة في ترميم كنائسها المتداعية

وكبطريرك الاقطار الغربية لم يبرح عن فكره بلد من تلك البلاد دانيها وقاصيها وليس بوسعنا ان نعدّد هنا دلائل عنايته الى فرنسة والمانية والنمسة وانكلترة وروسية وبلجيكة وهولندة والدنيمرك والسويج ونروج. فانّ المشرق ذكر شيئاً من ذلك في نظره السنويّ العامّ عن اهم الحوادث الجارية في اوربّة

لكنّ بيوس العاشر هو فوق كل ذلك ابو المؤمنين ورئيس الكهنوت وامام الاحبار وخليفة بطرس الرسول ونائب المسيح فانّ عنايتهُ لا يمكنها ان تنحصر في زمن او مكان واحد بل تشمل كل كنائس العالم كالشمس ترسل اشعّتها على كل الاقطار وليس من يتوارى عن حرّها ونورها. ولو اردنا هنا اثبات اعمال حبرنا من هذا القبيل لتوفّرت الادلّة واتّسع المجال وقد ألمّ المشرق بذلك ايضاً في وصف حوادث كل عام وحسبنا ان نذكر هنا اصلاحهُ للقناء الكنسيّ واوامرهُ في شرح التعليم المسيحيّ في كل اسبوع وتنشيطهُ للمواظبة على الاسرار المقدّسة لاسيما التناول المتواتر وتشذيبهُ للاضاليل العصريّة وغير ذلك مما لم يبرح عن ذكرى قرّائنا

ونحن احقر ابناء قداسته لا يمكننا ان ننسى ما خصّ به رسالتنا السوريّة وكليّتنا اذ بارك اعمالها في سبيل الله وخدمة الكنيسة من تعليم وتهذيب وتأليف وقد بلّغنا هذا الانعام برقيم شريف من يد كاتم اسرار دولته ثم كرّر بركتهُ ثانياً وثالثاً بعبارات طافحة من الحبّ الابويّ لحضرة الاب لوسيان كاتين رئيس كليّتنا لمّا تشرّف بالمثول امام عرش قداسته في حزيران الماضي

امّا كاثنتا الشرقية فقد نالت اوفى حصّة من اهتمام قداسته كما اعلن بالامس بطاركة طوائفنا الاجلاء بمناشيرهم. ولا يزال صدى الحفلات البهيجة التي اقيمت

في هذا العام تذكاراً للمئة الخامسة عشرة من وفاة فخر الكنيسة الشرقية يوحنا فم الذهب يتردَّد على مسامعنا. وقد تنازل كبير الاحبار ان يشارك الكنيسة اليونانية بالتقديس فخوَّل ابناءها شرفاً قدَّروهُ قدرهُ

فيا لله ما اعلى مقام الكنيسة الرومانية التي يمجدها الله باحبار لا يُشقُّ لهم غُبار ويقصر عن ادراك شأوهم كل سيَّار. ولا غرو فانَّ هامتهم يزينها ذلك التاج المثلَّث الذي يرمز الى ملء سلطتهم كقضاة الارض وائمَّة الدين ونوَّاب الله في عالمه. فلتحيَ كنيسة الله وليحيَ رأسها المنظور ولتُسرع الى حظيرة المسيح الخراف الضالَّة لتكون قريباً ان شاء الله رعيَّة واحدة وراع واحد

صدى المشرق

تُرفعُ الى ركن الكنيسة البابا بيوس العاشر

تهنئةً بيوبيله الذهبي

من نظم الملبَّم الفاضل يوسف افندي الفاخوري احد اساتذة كليَّتنا

يُحييكَ آلُ الشرق يا نائبَ الربِّ ... بعيدك عن ودٍّ تلظَّى بهِ لُبِّي
تحييكَ اجدادٌ يرطبُ تُربها ... رضاك عن الشرق البعيد عن الرُّعب
تحييكَ آباءٌ أبوا كلَّ مذهبٍ ... يناهضُ شرع الله في العُجم والعُربِ
تحييكَ ابناءٌ على الحقِّ قد سروا ... وما كان منهم خائف اللوم والعتبِ
يحييكَ لبنانٌ ومن ضمَّ ارضهُ ... وما انبتت غرساً يحنُّ الى السُّحبِ
ونلثمُ اقداماً وطئتَ بها الثرى ... فباركتهُ فاعتزَّ تيهاً على الشهبِ
لانَّ بكَ الدين الصحيح ممنَّعٌ ... وإيماننا حيٌّ يصانُ من العطبِ
تذوبُ عن الرب المهيمن راعياً ... تفدّي بنيه باذلاً مهجة القلبِ
كذا بطرس قد كان قبلك هادياً ... وقبلك احبارٌ تفانوا بذا الحبِّ